لماذا تدنَّى مستوى اللغة العربية في مدارسنا؟

د. عبد الناصر بوعلي
جامعة تلمسان

مقدمة: يشتكي المشرفون على قطاع التربية يوميًا من ازدياد مستمر في ضعف مستوى اللغة العربية لدى أبنائنا، وقد خرجت هذه الشكاوى عن نطاق رجال التربية والتعليم فأصبح يحس بها المجتمع برمته؛ لدى الأولياء وفي المعاملات الإدارية والمراسلات وكتابات الطلبة على اختلافها وتنوعها وفي النشاط اللغوي المنطوق من قراءة وتعبير وتواصل.

وإذا كانت الأمم الأخرى تعلن حالة الاستنفار عند تفشي الفساد اللغوي ويتألم المثقفون، ورجال العلم عندما يلاحظون ناشئتهم وقد انتابها الخطأ نطقا وكتابة فيبادرون إلى عقد الملتقيات وتدارس الأسباب والبحث عن الحلول الناتجة، فإننا نرى العكس في بلدنا وكأن الأمر يدخل في نطاق ما هو مألوف من السلوك رغم أنه يستفحل أمره يوما بعد يوم.

إننا نلاحظ في جميع مجالات حياتنا الثقافية الأخطاء اللغوية في مقال إن كتب أو رواية إن ألفت أو صحيفة يومية أو في نشرة إذاعية أو في خطبة مسؤول سياسي أو إمام يؤم المسلمين، إن الضعف اللغوي في بلادنا يتجلى أيضا في قصور الكثير من الناس في التعبير اللغوي فعندما يتقدم مواطن إلى إدارة ما شاكيا أمره أو طالبا مطلبا نجده يرتبك ويتعسر عليه الكلام ويصعب عليه الانطلاق في التعبير.

ولقد يتبادر إلى الأذهان في البحث عن مسببات هذا التخلف اللغوي فيرى البعض أنه ناتج عن عدم اهتمامنا باللغة في مناهجنا التعليمية لكن الواقع يبين لنا أن اللغة العربية كانت مهملة ومبعدة أثناء الاستعمار وعندما حصّلنا على الاستقلال

صارت العربية تتبوأ مكانتها ودخلت مناهج التعليم وارتفع عدد الساعات المخصصة لها في العملية التعليمية: وخصص لها كتب في النحو وفي القراءة وفي النصوص ودخلت العربية المناهج التربوية في مختلف الأطوار وأصبحت لها معاملات كبيرة ولم يخل امتحان من الامتحانات الرسمية من اختبار في اللغة العربية ولكن بالرغم من هذا الاهتمام وهاته العناية إلا أن التذمر من ضعف المستوى اللغوي بلغ ذروته واستفحل أمر تدني المستوى فما أسباب ذلك يا ترى؟.

2- **العوامل المسببة لضعف المستوى:** ليس هناك عامل واحد يمكننا أن نرجع سبب تدني المستوى إليه، نظرا لأن ثمة عوامل كثيرة تؤدي إلى هذا التدني ويمكن أن نقف على بعضها فيما يأتي:

أ- المناهج التربوية: إن كانت بعيدة عن محيط المتعلمين وخارجة عن عالمهم الاجتماعي والثقافي ولا تراعي اهتماماتهم، فإنها تلقى النفور والإعراض ولا يرغب فيها المتعلمون وإن كانت لا تناسب نموهم العقلي والنفسي والعاطفي ولا تلبي حاجتهم فإنها تصبح ثقلا على العقول ويحس الجميع بالملل في حال تلقنها.

ب- طرائق التدريس: إن طرائق التدريس التي تتبعها مدارسنا في تدريس اللغة العربية عامل آخر من عوامل تدني المستوى، فاللغة تكتسب بالممارسة والمران والاستخدام المستمر والاستماع لما هو فصيح بليغ والذي من شأنه تنمية الملكة اللغوية فقد كان ابن خلدون يقول: «والسمع أبو الملكات»[1]، والطرائق التلقينية المستعملة لدى الكثير من المدرسين تجعل الطلبة سلبيين لا إيجابيين فعالين يستقبلون فقط ولا يشاركون في العملية التربوية ولا يبذلون مجهودا وبالتالي تضرب آذانهم صفحا مما يقدم لهم.

إن الطرائق التقليدية في التدريس التي تعتمد التلقين والحفظ أساسا في عملية التعلم والتي تتسم بالسلبية لا يمكن أن تؤدي إلى تعلم اللغة واستساغتها، ففي الوقت الذي تغيرت فيه النظرة إلى اللغة في العصر الحاضر ففسرت على أنها عادة أو مهارة كما يرى علماء النفس التربويون[2]، وأن تعلمها لا يختلف عن تعلم أي مهارة أخرى، فإن

العديد من المدرسين ما زال يعتقد أنها مجموعة حقائق يجب أن تعلم وتحفظ عن ظهر قلب، وإن هذه النظرة تؤثر في عملية تعليم اللغة وممارستها.

إن تدريس اللغة يهدف في جوهره إلى ممارستها كلاما، وقراءة، وكتابة، ولا بد أن تتحكم فيها الناشئة ويتطلب هذا الأمر التدريب على التعبير والاتصال، ومن الواضح أن أي اتصال لغوي لا بد له من أن يعتمد على مرسل ومرسل إليه وتتم العملية وفق طريقة تسهم في تسهيل الاتصال وإنجاحه وتحقيق الفهم والتعلم مادام الأمر يتعلق بمعلم وتلميذ، وهنا يتطلب الأمر اللّجوء إلى الطرائق النشيطة التي تشجع التعلم الذاتي وينبغي أن يتكلم التلميذ أكثر ما يمكن أن يتكلم وعلى المدرس أن يقوم بدور الموجه والمرشد ويكف على التدخل لمقاطعة التلاميذ وعن اللجوء إلى التلقين والسرد ومن أنجع الطرق لتعليم اللغة هي الممارسة وترك التلميذ يعبر بحرية كاملة عن أفكاره ومشاعره وآرائه، وتتم هذه العملية في «مرحلتين متتابعتين في الأولى يفسح المجال أمام الطفل للكلام في الوقت الذي يتدخل فيه المدرس مشجعا وحاثا وفي الثانية يأخذ المدرس هذا الكلام ناقدا ومقوما ومصححا»[3].

ج- ما يكتنف النحو العربي من تأويل ومما حكة: يغزي الكثير من الدارسين ضعف المستوى اللغوي لدى الناشئة إلى ما يكتنف نحوها وصرفها من صعوبات وتأويلات ومماحكات، فقد قالوا إن في النحو العربي تعقيدا وصبغة فلسفية يتعسر على التلاميذ إيجاد الحلول لها، وأن تدريس النحو قد تحول من الوسيلة إلى الغاية ولذلك صار أبناؤنا يشتكون من صعوبة النحو وتعسر فهمه وتطبيقه، زد على ذلك تعنت العديد من المدرسين بتلك القواعد الجاهزة والمنظومة الموروثة عن الأولين.

وكان العديد من العلماء قد هاجموا الكثير من الجوانب التي رأوها معقدة في النحو وحملوا دعوات التسيير نذكر من بين هؤلاء:

*الدكتور طه حسين: الذي كان يرى أن سبب نفور الطلبة من اللغة العربية ما يجدونه من تعقيد وصعوبة في فهم النحو وتطبيقه فقد قال: «إن أردت أن تعلم النحو لهؤلاء التلاميذ المساكين فكيف تريدهم أن يفهموا على أن قولك "قرئ

الكتاب" قرئ فعل ماض مبني للمجهول، والكتاب نائب فاعل، لأن الفاعل قد حذف لغرض من الأغراض التي تذكر في علم المعاني وعلم النحو، وأنيب عنه المفعول به، فكيف تريد التلميذ المصري أو الشامي أو العراقي الذي لم يتجاوز سنه الثانية عشرة أن يفهم هذا الكلام؟ ما هذا الفاعل الذي حذف؟ وما هذا المفعول به الذي أنيب عنه؟ وما هذا المجهول؟

وعندما تريد أن تفهمه قول الله تعالى: ﴿ وإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ثُمَ أَبْلِغْهُ مَامَنَهُ ذلكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[4] قلت له: إن (أَحَدٌ) في قوله:﴿ فَإِن أَحدٌ منَ المُشركينَ﴾ فاعل لفعل محذوف تقديره: (استجارَكَ) وإن تقدير الآية: "وإن استجارك أحد من المشركين استجارك" فيسألك التلميذ: وأين توجد استجارك الأولى هذه، ومن أين نأتي بها، وفي وجود هذا الفعل مرتين؟ ولم لا نكتفي بهذا الفعل الذي اكتفى به القرآن الكريم؟ كيف تجيبون؟

أما أنا –والكلام لطه حسين– فقد سألت أحد الشيوخ عن إعراب هذه الآية فأعربها كما تسمعون، فقلت له: يا سيدي أتزيد في كتاب الله؟ وعلة هذا النحاة القدماء قرروا في قواعدهم أن حرف (إن) لا يدخل إلا على فعل، ولما جاء في القرآن الكريم وكلام العرب أنّ: (إن) وبعدها اسم، ولم يخضعوا لما جاء في القرآن الكريم ولم يخضعوا لما جاء في كلام العرب نثرًا وشعرًا، وإنما أرادوا أن يخضعوا القرآن للقاعدة التي قرروها»[5].

ويرى الدكتور مراد كامل أن تعليم اللغة بوضعها المتحجر من غير مواكبة لروح العصر وللتطور الاجتماعي يعمل على تنفير المتعلمين من اللغة الفصيحة ولجوئهم إلى العامية فيقول: «ويحاول النحويون الرجوع باللغة الفصحى إلى ما كانت عليه في أول أمرها قبيل الإسلام وأيام الأمويين والحيلولة بينها وبين مواصلة النمو والتطور والتنوع، وبهذا يريدون أن يبتعدوا باللغة الفصيحة عن الحياة النابضة الزاخرة.... وحين نلقنها لهذا الجيل وللأجيال المقبلة بوضعها المتحجر فإننا نجبرهم بطريق غير مباشر أن يهربوا منها ويتركوها»[6].

وتناول الدكتور عباس حسن هذه القضية فأشار بأن هذا الخلاف والتفرق في كثير من القواعد النحوية كان أظهر للعيوب فيها، وأكبر العقبات في تحصيلها[7]، أما الدكتورة بنت الشاطئ فإنها تعزو عدم جدوى تعليم العربية إلى الفصل بين الإعراب والمعنى فتقول: «وكان الخطأ الأول أن الأصل في الإعراب أن يضبط المعنى ويدل عليه لكن اللغويين فصلوا النحو عن المعاني، ووضعوا بينهما الحدود والأسوار فأنت تعلم في النحو مثلا حكم الصنعة في نائب الفاعل، أما لماذا تصرف العربية النظر عن الفاعل وتأتي بما ينوب عنه فذلك مالا شأن للنحو به، وإنما مكانه في علم آخر هو علم المعاني وهذا العزل الشاذ بين الإعراب والمعنى هو الذي جار على جدوى التعليم في كسب ذوق العربية ومعرفة منطقها»[8].

وفي ضوء هذا التوجه نجد الدكتور مهدي المخزومي يرجع الضعف في اللغة العربية إلى أسباب خارجية وأخرى داخلية، فأما الخارجية فهو مالاقته الأمة العربية من جراء الاستعمار لبلادنها ومحاولاته طمس معالم الشخصية العربية حيث كانت اللغة العربية الضحية الأولى والهدف الرئيسي له، وأما الأسباب الداخلية فيراها في الأوضاع الاجتماعية المزرية التي مرت بها الشعوب العربية وإلى انتشار الأمية بين طبقات الشعب وإلى عقم التدريس وسوء اختيار الكتب المدرسية[9].

وفي موقف آخر للمخزومي يحاول شرح عامل الكتاب المدرسي فيقول: «وما ضعف الطلبة حتى المتخرجين منهم في أن يفهموا نصا أدبيا أو لغويا، وفي أن يألفوا جملة عربية سليمة؛ آلا لأن القائمين على تدريس النحو سلفيون مشدودون إلى القديم لأنه قديم، ولأن الكتب المدرسية اليوم هي مصنفات النحاة المتأخرين الذين عاشوا التخلف، ومازالت مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا تعتمد في تدريس اللغة العربية وعلومها المختلفة على مصنفات النحاة المتأخرين التي ليس فيها من النحو إلا صورة باهتة مهزوزة وحلقة مفرغة»[10].

د/ تكوين المعلمين والأساتذة: إنّ المدرس الذي يجهل أصول التدريس، ولا يحسن استعمال الطرائق التربوية الحديثة وينفر من وسائل الإيضاح ولا يحضّر مادته العلمية ويرتجل في عملية التدريس، والذي يمتلك شخصية ضعيفة فإنه يشكل العامل الأبرز في تدني مستوى طلبته، إن ضعف المستوى العلمي والتكويني للمدرس يجعله غير مستطيع للقيام بالعملية التعليمية ولا يحالفه النجاح في دروسه فتسقط قيمته في نظر طلابه ولا يقبلون على دروسه، وبالمقابل فإن المعلم الجيد يقدم طلابا جيدين، وفاقد الشيء لا يعطيه، إن الطلبة يحاكون أساتذتهم ويتمثلون لغتهم وينسجون على منوالهم فإذا ارتكب المعلم الخطأ انتقل هذا الخطأ إلى ألسنة الطلاب وأقلامهم.

هـــ/فوضى في أساليب التقويم: إن أغلب الأساليب المتبعة في عملية التقويم لا تقيس إلا الحفظ والتذكر، وتهمل المهارات العقلية التي تقوم على التعليل والمقارنة والاستنتاج والحكم، وهذا ما أدى إلى هشاشة الخبرة وزوال المعرفة ونسيانها. إن التقويم ينبغي أن يشمل جميع المستويات المعرفية وأن يمس الجانب الوجداني والتأثري حتى تنمو المهارات اللغوية وتبنى على أسس متينة.

و/ نقص المناشط اللغوية خارج المدرسة: إن اللغة تكتسب بالمهارة والممارسة المستمرة والتعزيز اليومي، فالنحو والصرف والمعجم والبلاغة والدلالة ليست هي اللغة و إنما هي أشياء عن اللغة؛ فاللغة تؤخذ بالسماع وتكتسب بالمران لذلك ينبغي الإكثار من المناشط حتى تساعد الناشئة على عملية اكتساب المهارات وتثبيت المعارف اللغوية السليمة.

وهناك العديد من العوامل الأخرى تتمثل في ضآلة استخدام تقنيات التربية في تعليم اللغة وتعلمها خلافا لما نلقاه من تعليم الأجانب للغاتهم وهذا ما يجعل الدارس يحس بالفرق بين الأساليب الجذابة لتعليم اللغة الأجنبية والفقر في الوسائل المعينة في تعليم لغة الأم[11].

زيادة على سوء اختيار المادة اللغوية المناسبة لقدرات المتعلمين العقلية والملبية لاهتمامات ورغبات الناشئة وميولهم.

3/ **النهوض بالمستوى اللغوي:** إن النهوض بالمستوى العلمي للغة وترقية مستواها يقتضي توفير متطلبات عدة نذكر منها:

- الاهتمام بإعداد معلمي اللغة العربية إعدادا علميا وتربويا جديرا بمهام ومسؤولية المعلم العظيمة في تعليم الناشئة للغتهم وأمور ثقافتهم، والعمل على جلب الكفاءات إلى التدريس عن طريق خلق الحوافز المادية والمعنوية.
- الاهتمام بالكتاب المدرسي شكلا ومضمونا، وضبط نصوصه بالشكل التام في المراحل الأولى من التعليم، ذلك أن عملية الضبط تساعد المتعلم والمعلم.
- تبني الطرائق النشيطة في عملية التدريس وتشجيع التعلم الذاتي.
- توفير المناخ اللغوي الملائم في المجتمع خصوصا في وسائل الإعلام المسموعة، وفي الأسرة، وفي المحيط الاجتماعي (اللافتات والملاصق والإعلانات...) وفي المدرسة نفسها.

فتعليم اللغة والمحافظة عليها وتطويرها هي مسؤولية جماعية وأطفالنا يمرحون ويلعبون في المجتمع ويجلسون أمام التلفاز ساعات وساعات لذلك ينبغي إشعار الجميع بهذه المسؤولية وسن قوانين تمس الهيئات الإعلامية والإدارية التي يدخل في اختصاصها الممارسة اللغوية.

- استخدام التقنيات الحديثة من وسائل سمعية وبصرية وما يوفر الإعلام الآلي من خدمات متنوعة، لأن في استخدامها إثارة لاهتمام الناشئة وجذبا لهم على الإقبال على الدروس.
- مراعاة مراحل النمو للناشئة في الدروس المبرمجة لكل مرحلة ولكل سنة دراسية؛ لأن لكل مرحلة من مراحل العمر خصائصها النفسية وقدراتها العقلية وطاقاتها الفكرية.

الخلاصة: إن لغتنا العربية الفصيحة هي اللغة الوطنية الرسمية للبلاد وهي اللغة القومية التي تربطنا بالتراث وبالدين وببقية الأقطار العربية، ولذلك فهي الأجدر بالتعلم، وإن أي تفريط فيها يجرنا إلى الانسلاخ من ماضينا ويباعدنا عن جيراننا

ولذلك أجدني قد سلطت البحث عن عوامل تدني مستواها في مجتمعنا وذلك بغيبة التنبية، ومن باب التذكير وحتى التحذير من العواقب التي تنجر عن الإهمال واللامبالاة بالأمر. وإن تكاتف الجهود بين أبناء المجتمع الجهود بين أبناء المجتمع كل في تخصصه وكل في الإطار الذي ينشط فيه من شأنه أن يرجع للغتنا قيمتها وهيبتها ومكانتها، فالقضية اللغوية مسؤولية الجميع لأنها عنوان الهوية ولسان الأمة والرابط بين أبناء البلد على اختلاف مستوياتهم.

هوامش البحث:

1. ابن خلدون، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ط8، 48/2.
2. عبد العليم إبراهيم، الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، دار المعارف، مصر، 1988، ص102.
3. د.محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر دمشق، ط1-1989، ص123.
4. سورة التوبة الآية 06.
5. طه حسين، نقد وإصلاح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1970، ص 71.
6. مراد كامل (عالم باللغات الشرقية ولد سنة 1907 وتوفي 1975م بالقاهرة كان يحسن ثلاثين لغة ولذلك لقب بعاشق اللغات، كان عضوا فاعلا في المجمع اللغوي بالقاهرة)، اللغة العربية لغة عالمية، دار الفكر، ص 31.
7. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف؟، مصر، ط06، ج1، ص23.
8. بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)، قيم جديدة للأدب العربي، دار الشروق، ط1، ص57.
9. مهدي المخزومي، النحو العربي نقد وتوجيه، دار الفكر، ط03، ص83.
10. نفسه ص84.
11. محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، ص82.